كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي

المعروف بالاصبهاني

المغزى الذي يقصد اليه الناقد من تصفح كتاب « الاغاني » ليس فيما تضمنهُ من الاخبار والسير واحاديث المجالس انما يبغي الناقد الفني من النظر في « عمل » جدي يعد من الاصول المنقطعة النظير في التصنيف العربي وبخاصة تاريخ الغناء والاطوار التي اعترت الصناعة وحدود تأثيرها في الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم وما يدل على سلامة نظر المصنف وصحة حكمه من فكرة او ملاحظة او رأي . ولكن صاحب كتاب « الاغاني » اختار طريقة الرواية . وكانت الطريقة السائدة في عصره . واستعان بسلامة ذوقه وحسن اختياره على تدوين الاغاني باخبارها ورتبها بطريقة « ينتقل القارىء بها من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى اخبار محدثة ومن جد الى هزل حتى يكون النشط لقراءته واشهى لتصفح فنونهِ »

وقد كان للرواية تأثير بين في طريقة كتابة التاريخ . فحققت الطريقة المجردة التي يقتصر فيها المؤرخ على ذكر الحادث ودمنه دون تعليل او ملاحظة او حكم . وهي الطريقة التي لم تسلم منها تصانيف مؤرخين من الفلاسفة مثل « ابن مسكويه » و « ابن خلدون » . واتبعها مؤرخو الفرنجة انفسهم في العصور الوسطى وما بعدها . وتعرف باسم « الكرونولوجي » . ولما كانت الرواية سابقة لهذه الطريقة وكانت قديمة لانها ترجع الى العصر الاغريقي . فقد كان تأثيرها ظاهراً لا في تدوين التاريخ وحده بل في العلم العربي نفسه وعندما اتصل العرب بثقافات الامم القديمة انقادوا الى السليقة في التصنيف وخف تأثير « الكلاسيسزم » في اذهانهم

وجاءت الرواية عن طريق اللغة . اذ كانت اللغة كل علم العرب . والفضل للرواية في ان العرب دوّنوا . وكان علمهم اوسع بكثير مما دوّنوا . وكان الكلام ديوان بلاغتهم وذوقهم ونظرهم . وكانت حافظة العربي هي العمدة وتغلبت هذه الملكة على سائر ملكات الذهن العربي . فلما كان اتصال العرب بحضارات الامم القديمة واشتراكهم في علوم الاغريق خلفت هذه الملكة اثرها القوي في اساليبهم ولم يسلم الشعر العربي بطبيعة الحال من ذلك الاثر

وكان الاموي الكاتب صاحب كتاب « الاغاني » من خير رواة عصره . وكان « عالماً بايام الناس والانساب والسير » وكان من كبار الحفّاظ . والتفوق في علوم الاسناد والرواية كان من تقاليد البلد الذي ولد فيه ابو الفرج . وهو اصبهاني الاصل . بغدادي المنشأ

ولقد كان انتساب أبي الفرج الى أصبهان وشرف ارومته من حظ العلم والا فلا بد لنا من الاعتراف بالصفات الذهنية العظيمة التي خص بها اهل ذلك البلد. « وقد خرج من اصبهان من العلماء والائمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة ». ولا ادري من هو ذلك المؤرخ العربي الذي ذكر ان حضارة العرب مدينة في الكثير الى الاجزاء المعتدلة التي تأصل فيها الذهن العربي فان اصبهان من انقى بلاد الله هواءً واصفاها مناخاً واعدلها. ولذلك فان اهلها تطول اعمارهم ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث. واذا قيل حديث واسناد قيل لغة. فان الباب الملكي للتأويل عند العرب هو اللغة. و« المناخ تأثير بين في اللغات»[1]. وكانت ميزة الكاتب الاموي صاحب « الاغاني » — وهي ميزة كونها المناخ — انهُ كان عالماً في اللغة. وكان علمه في اللغة اداته في الكتابة. اداة بليغة هي زبدة ما يخرجهُ راوية للشعر

وفي الحضارة العلمية الاسلامية كانت الاحاطة باللغة نوعاً من التفوق الشائع الذي يرافق بصفة خاصة سائر فروع العلم. فكان الفقيه العربي يفزع اليه في الشرع كما يفزع اليه في الطب وهو مع ذلك حجة في اللغة. كأن العلم في اللغة والاحاطة بها مقدمة لازمة لكتاب معارف الفقيه العربي

هذا الى ان « ابن خلكان » الذي نعتمد عليه في استخلاص حياة الكاتب الاموي روى « انهُ كان يحفظ دون ذلك من علوم اخر: « الخرافات » و « السير ». ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً منها علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم الخ ولعلكم تدهشون لذكره الخرافات بعد اللغة. وهو لا يعني بالخرافات الاقاصيص الشعرية المنسوبة الى الاغريق والفرس والهنود انما نعتقد انهُ يعني بها الميثولوجيا. وكانت الميثولوجيا في الالياذة قاموس لغة الاغريق وكان يسرُّ ادباء الاغريق ان يرجعوا الى شعر هوميروس لكي ينسبوا اليه تصحيح لغتهم واساليبهم[2]

اما اجتماع البيطرة بالنجوم والجوارح في آلة المنادمة فاشبة بتآليف لوحة فذة لمصور أديب مثل « فرومنتان » ولنها لتذكرنا بتظرف بيئة رقيقة من ارباب الأدب والشعر والنبل كالتي عاصرت آل تالواني فرنسا. ولقد كان لبعض المتعوبين العرب عناية وافرة بالبيطرة. وكانت علاقتها بالاعتناء في اللغة من آلة المنادمة في المجالس. وكان الاصبهاني كأديب من أعيان الادباء وافرادهم منقطعاً الى الوزير « المهلبي » بلا شك من الوزراء الذين يجمعون الى التدبير والسياسة حماية أفراد الادباء والمشتغلين بالعلم. وحماية ارباب الفنون من تقاليد الانسانية التي لا تكاد تنقطع

كان العلم الذي يحض عليه مناخ اصبهان هو الحديث والاسناد. وكان من تقاليدها ان يكثر فيها الحفاظ. ولكن ابا الفرج كأديب وسع اطلاعه كل فروع المعرفة في عصره خص تفوقه في الرواية بالعلم باخبار الناس وايامهم. فكان مؤرخاً بالاصطلاح القديم « انكلاسيك » وكان مؤرخاً راوية اعانهُ ذوقه وصفاء ملكته وقوة روحه على الاحاطة باخبار الغناء في كل

(١) تاريخ الاندلس الفني. طبع مدريد (٢) انظر تاريخ النقد

اطواره . واحسانه في هذا الفن لا ينسب الى عبقرية راوية من اعلام الرواة فحسب بل ينسب الى خصائص طبيعية اخرى . أو اجداده للخلفاء . ذلك الاثر الذي خلص نشأته ورفع مستوى تهذيبه في بيئته . كان اذا فتش المرء نسب اجل من فيها لم يكن بد من ان يجد في أصل نسبه حائكاً أو يهودياً . وكان أبو الفرج الاصبهاني لطيف المذهب في الفطرة شريفاً لا عل

وان مجرد الموازنة بين مواهب الكاتب الأموي وما وسعه ذهنه الكبير من فروع العلم والطريقة التي اختارها في تأليف كتاب « الاغاني » تحملنا على الايمان بمدى ما بلغه انقياده للمذهب القديم في كتابة التاريخ . ولم تغب عنه مع ذلك الطريقة المستحدثة التي تعنى بتمييز اطوار الفن وطبقات اربابه في ازمانهم ومراتبهم . فقال « لعل من يتصفح هذا الكتاب ينكر تركنا تصنيفه ابواباً (١) على طرائق الغناء « Modes » . (٢) وعلى طبقات المغنين في ازمانهم الخ» . ثم اشار الى طريقته فقال « ليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ما ضمنه من ذكر الاغاني باخبارها» . وهي الطريقة الاخبارية القديمة المستمدة من علم الاسناد وكان أبو الفرج الاصبهاني من قبل ان يكون مؤرخاً للاغاني من كبار الحفاظ والرواة

هذا الى رأي آخر لا بد من ملاحظته . وهو ان العرب لم يكونوا في الاصل مدونين . فانهم لما بدأوا بالتدوين ارتجلوا طرائقهم او اقتبسوها مما اطلعوا عليه من طرائق التصنيف عند الامم التي اتصلوا بها فكرياً . فهل وفق العرب عند نقل كتاب «الموسيقى» مثلاً اوقبل ذلك الى الاطلاع على تواليف اخرى في هذا الموضوع ؟ وجلي ان الكاتب الاموي قد رسم لنفسه الطريقة في تأليف كتاب الاغاني . وقد ذكر ابن خلكان انه «جمعه» في خمسين سنة واتفق الرأي على انه لم يؤلف في بابه مثله»

وقد استطاع أبو الفرج الاصبهاني ان يكون كاتباً موسيقياً ومن نقدة الفن دون ان تكون له مع ذلك ملاحظة ظاهرة او فكرة خاصة او استنتاج او تحليل كما يؤثر مادةً عن نقدة الفن وكان عذره عن الطريقة التي اختارها وقادته اليها غريزته التقليدية « ان الاغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لا يمكن معها ترتيبها على الطرائق»

وكان أبو الفرج الاصبهاني قد صنف في البدء كتاباً سماه «مجرد الاغاني» واشار الى ذلك في المقدمة فقال «... اذ كان قد افرد لذلك كتاباً مجرداً من الاخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ...» . والظاهر ان هذا الكتاب كان مرجعه في تأليف « الاغاني » فقد اضاف اليه الاخبار والقصص بترتيب حسن « ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومن جد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه»

فالعلوم التي نبغ فيها الاصبهاني اذا اجتمعت ألفت شبه اوتار مشتركة لهيكل كبير هو الغناء او الموسيقى العربية كلها تمت بصلة الى ذلك الهيكل وتتعلق به : من الحفظ الى اللغة الى السير

فعل الجوارح . حتى تلك النتف من الطب والنجوم التي كانت تعد يومئذ من آلة المنادمة

ولقد كانت الاغاني العربية نفسها تحتاج الى الحفظ والرواية لان العرب لم تخترع حروفاً «نوتة» لتقييدها. وكان الشعر من حيث كونه صناعة «art» علم هو اللغة وفن هو الغناء. ويجب ان نعلم ان الاغاني العربية تمثل روح اللغة لا الروح العربي الذي انقطع بالعصر الجاهلي: وانها (اي الاغاني) تمثل العاطفة لا الحياة . وانها تتكلم عن الانسان لا عن الجمعية

وكان الاصبهاني كناقد فني وكاتب موسيقي من الطراز الاول يستخرج من مصخر ثمين اشترك فيه اثر اجداده وذوقه ولطف مذهبه فيما اختاره لنفسه من العلوم لكي يجمع في كتابه «ماحضره . . وامكنه جمعه من «الاغاني العربية قديمها وحديثها» وينسب «كل ماذكره منها الى (١) قائل شعره (٢) صانع لحنه (٣) طريقته من ايقاعه (٤) واشتراك ان كان بين المغنين فيه على شرح لذلك (٥) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى ءن علمه من علل اعرابه واعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة الحانه

وكانت مهمة طفيفة اذا وازنتا بها علم الاصبهاني واتساع معارفه في هذا الباب واهتدائه الى مذهب التصنيف في تاريخ الغناء العربي على طرائقه وتمييز طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم . ومعنى «ترتيب الطبقات» في عرف النقد الفني هو تحليل اطوار الغناء في ازمانه غير ان هذا المثل الاعلى في كتابه تاريخ الغناء بقي كحلم الشاعر في ذهن الاصبهاني الذي كان يعلم ان الناس تجهل اخبار الغناء ومن غنى شعره من الشعراء القدماء وطرائق الايقاع ومذاهب المغنين فكيف يستطيع ان يؤلف بطريقة تحليلية مدارها على الحكم والملاحظة والتفكير والاستنتاج . وانا نعتقد ان الكاتب الاموي اراد ان يتكلم عن الغناء العربي كفيلسوف وان كتابه «الاغاني» كان تجربة ثانية بعد كتاب «مجرد الاغاني» لم يقدر ان يتملص فيها من ضرورة التوفيق بين علمه الواسع وحاجة عصره الى معرفة الاغاني العربية . واراد الاصبهاني ان يتجنب الحشو فلم تمكنه طريقته من ذلك و «نقض ما شرطه على نفسه من الغاء الحشو» . واراد ان يكون خلقياً يراعي من اخبار الغناء «ماتحتاج الاحداث الى دراستها وتجمل بالمتأدبين معرفتها!» فخالفه عيب العصر نفسه في رواية الاخبار. وهو عيب وقع فيه كثير من اللغويين . ونذكر ان المستشرق «دس. دوساسي» عند ما نقل مقامات الحريري الى اللغة الفرنسية انتقدها «ارنست رنان» من الوجهة الخلقية ولكن عذر المترجم انه اراد ان تدرس اللغة العربية في تآليف كبار اللغويين انفسهم

ولقد كان الاصبهاني ككتابه يحفظ ذكرى ليالي الانس الحافلة بالغناء ووجوه الظرف والسمر والبلاغة وتقمص الملوك في مجالسهم وسيرهم ومغازيهم ومجون الندامى واحاديثهم. ولولا الجزء الفني في الكتاب الذي لا يكاد يفهمه الناس لكان في وسع اي ناقد ان يعده من اشهى كتب الاقاصيص في اللغة العربية

[البقية في مقال آخر]

عبد الحميد سالم